الدستور فى شعر شوقي

بمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله

[بقية المنشور فى العدد الماضي]

الأستاذ أحمد محمد الحوفى

— ٦ —

وأية علاقة بين توت عنخ آمون والدستور ؟ قد تكون الجمع بين النقيضين : قديم مغرق فى القدم يبعث الدهش والعجب ، وحديث طريف تمت إليه الهنشات بسبب ، وقد تكون إخبار توت عنخ بأروع ما جد فى مصر بعد تلك الحقب ، وقد تكون غير ذلك ، ولكنها على أى حال ليست بالعلاقة القوية التى تتداعى لها المعانى وتتوافى الخواطر ، فلم يبق إلا أنها نزعة أصيلة فى نفس شوقي إلى الدستور يتلمس للتصريح بها معارض القول ، فيشيد بفضل الدستور فى هداية الأمم وحياتها.

يحدث شوقى توت عنخ ى ثمانية بدثور حكم الفرد ، وغبور عهد الظلم ، ويفخر عليه بأنه فى عصر الشورى والحرية وسلطان الرأى العام على الرعاة والحكام ، وكأنما هجس فى قلب شوقى أن توت عنخ قد يجد فى خضوع الملوك لشعوبهم غضاضة أو انتقاصاً من سلطانهم وأبهتهم ، فبدره بأن الملك فؤادا أجل منه فى قلوب شعبه المتمتع بالدستور ؛ على أنه أشرف بنعمة الإسلام .

وكأنه وازن مجد مصر فى عهد توت عنخ واتساع ملكها ومناعتها وبأسها بحالها فى عهد فؤاد ، فرجح الدستور وحده ما مضى ، وإنه لشرف للدستور أن يرجح عند الموازنة ، وشرف للملك فؤاد أن يفوق فى المفاضلة والمقارنة .

وينتقل إلى أثر الدستور فى إعزاز الرعاة والرعية ، فيبين فى فخامة وضخامة وجلال أن قوة الملوك وسطانهم وجهم ، إنما يكفلها الحكم النيابى وحده لهم ، وأنه لا استقلال لمصر ما لم يعضه الدستور وحكم الشورى ، لأنه يجمع رواد الأمة وزعماءها فى ناد واحد يتحاجون ويقترحون ويراقبون ، وإذا لم ينعقد مجلس النواب فقلوبهم شتى ، تجدّ الحوادث وهم يلهون ، وأمور مصر فوضى وإن وليها الخلفاء الراشدون

عنده فى نظر من لا يعرف ! أما من يعرف ما يعرفه زكي مبارك من أن الأشياء كلها حية حتى الزلط ، فليس خروج الدوح من البذر ، ولا الطير من البيض عنده بعجيب !

والرجل يفترى فى كلامه ذلك ليتوصل إلى إنكار الإعجاز المعنوى لتلك الآية وأشباهها فى القرآن الكريم . فلا الناس فى ذلك العصر ، بل ولا جمهرتهم فى هذا العصر يرون عجيباً أن يتحول البذر والبيض إلى نبات وحيوان ، لأن ذلك شيء عادى مألوف قد غطت الألفة على موضع العجب منه ، وصرفتهم عن تدبر سر القدرة الإلهية فيه . والقرآن الكريم هو الذى عجّب الناس من أمثال هذا المألوف ، واستلفتهم إلى ما فيه من معجز القدرة الإلهية حين طالبوا النبي بالمعجزات ، وأقام منه الدليل العقلى العلمى على إمكان البعث حين أنكروا البعث ، ودعا إلى التفكير والبحث عما أودعه منزل القرآن سبحانه فى كل ذلك من أسرار كشف العلم الآن عن بعضها ، فتجلى بذلك جانب من إعجاز القرآن قامت به حجة الله على من يعلم ويعقل ولو لم يعرف من العربية ما يدرك به الإعجاز اللغوى للقرآن

فالعلماء ، لا عوام الناس ، هم الذين يعجبون من خروج النبات من البذور ، وخروج الحيوان من البيض . يعجبون من ذلك عجباً لا يكاد ينقضى ، يحملهم على متابعة البحث عن سر جديد حين يتجلى لهم بالبحث العلمى سر قديم ، ولا ينفكون يسلمهم السر هكذا إلى سر ، جيلاً بعد جيل ، من غير أن يكون لهم أمل فى الإحاطة بكل أسرار الحياة . ثم يجيء زكى مبارك فيزعم أن القرآن يقيم الحجة على الناس بتعجيبهم مما لا عجب فيه إلا فى نظر من لا يعرف ! حتى إذا قلنا إنه عاد يعرض للقرآن بالجهل وسوء العقيدة والرأى قال : إنه رجع إلى المقال فلم يجد فيه لفظة واحدة تدل على أنه يخاصم القرآن !

محمد أحمد الغمراوى

لا عاصم لمصر إلا دستورها ؛ تصلح به ما فسد من أمورها ، وإن شوقى لصنع بارع الحيلة فى مطالبة الملك فؤاد بالتعجيل به ، وفى بيان آثاره وفضائله ، فهو النور يهدى الضالين ، والمصباح يستضىء به المصلحون فيبعثون من الكهوف الجهال الغافلين ، وهم يعدون بالملايين يرسفون فى قيودهم ، وينقادون لأفراد يحكمونهم طاغين ، وليس مثله فى علاج هؤلاء الزمنى إلا معجزة سيدنا عيسى ، فنوره سيشع على الجهلة عمى القلوب فيبصرون ويعلمون ، وبده الرفيقة القوية ستحطم قيود المتخلفين فينهضون ويعدون ، وإنه للحق والعدل والدواء الوحيد .

ها هنا جلال الفكرة ، وجلال الأداء ، وتأثيره ، وطرافة الخيال ، وها هنا قلب الشعب يخفق ، ولسانه ينطق ، وبده تصفق ، ومن أولى من شوقى بذلك كله ؟ ؟

زمان الفرد يا فرعون ولى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الحرية نازلينا
فؤاد أجل بالدستور دنيا ... وأشرف منك بالإسلام دينا
بنى (الدار) التى لاعز إلا ... على جنباتها للعالمينا
ولا استقلال إلا فى ذراها ... لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب ما لم يدخلوها ... على جد الحوادث لاعبينا
وإن فقدت فأمر القوم فوضى ... وإن وليته أيدى (الراشدينا)
إذا سارت به أيد شمالا ... أتت أيد فسرن به يمينا
فعجل يا ابن إسماعيل عجل ... وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج ... من الكهف السواد الغافلينا
ملايين تجر الجهل قيداً ... وتسحب بالقليل المطلقينا
فداو به البصائر فهو عيسى ... وفك براحتيه المقعدينا
ومن يرَ دُونَهُ حقاً فإنى ... أراه وحده الحق المبينا

وفى قصيدة أخرى بعنوان توت عنخ والبرلمان يتجلى اعتزازه بالحكم النيابى ، وكفالته بأن تسود مصر ويحكمها بنوها ، وكأنه يلمح دعاوى خصومها بأنها لم تبلغ بعد رشدها ، فليست جديرة بالدستور والبرلمان فيرد عليهم فى حماسة وثقة بالشعب وسلامة عنصره وجدارته بالدستور والبرلمان .

وتنطق أبياته بهجته بافتتاح البرلمان يوم المهرجان ، وقد احتفى به الشعب من شيب وشبان وعقائل وفتيات ، وتهادى موكب الملك فؤاد على الريحان ، تخطر العظمة فى ركبه ، ومن كفؤاد فى عظمته وعظمة آبائه ؟ ؟ وإنه ليقيم فى دار الندوة مجد مصر ، ويؤسس الشورى ويوطد دعائمها ، ويسوس بها هذا الجيل السعيد ، وليس أدل على عظمة فؤاد وعلى سخائه من تنازله عن سلطته لشعبه الوفى .

مصر الفتاة بلغت أشدها ... وأثبت الدم الزكى رشدها
ولعبت على الحبال وحدها ... وجربت إرخاءها وشدها
وبعثت للبرلمان جنـدها ... وحشدها للمهرجان حشدها
حدت إليه شيبها ومردها ... وأبرزت كعابها وخودها
ونثرت فوق الطريق وردها ... واستقبلت فؤادها ووفدها
موئلها وكهفها وردّها ... وابن الذين قوموا مقدها
وألفوا بعد انفراط عقدها ... وجمعوا صحراء ليبيا حدها
وبسطوا على الحجاز أيدها ... وسيروا الماتى فيه عبدها
حتى أتى الدار التى أعدها ... لمصر تبنى فى ذراها مجدها
فثبت الشورى وشد عقدها ... وقلد الجيل السعيد عهدها
سلطته إلى بنيها ردها

— ٧ —

ولما ائتلفت الأحزاب صاغ قصيدته (البرلمان) فكرر الاطمئنان إلى الدستور وأنه أمان من طغيان الفرد ، وعهده ظليل جميل ، وهو الكفيل لكل مجد أن يجنى ثمار جده ، ولقد كسبته مصر بمجدها لم تنله عفواً أو يوهب لها وهباً ، فقد جالد رجالها بسلاحهم فى الثورة العرابية فسجلوا جدارتهم بالحياة الراقية والحرية ، وجاهد أبناؤها فى الثورة الحديثة فباعوا دماءهم وأرواحهم . فالدستور إذن يقوم على دعامتين : إحداهما ضحايا النضال فى التل الكبير ، والأخرى شهداء الصيال فى الثورة . والدستور عصمة من الهوى ، ونواب الأمة حراص على مالها لا يقتنمونه ، أعوان لسلطانها لا يستصغرونه ، يتساندون فى الضراء ، ويتعاونون فى السراء ، ويعالجون الأمور برفق وأناة إذا عصف الجو ، وتنمر المدر ، أو اصطدم الاصلاح بقديم من التقاليد لا خير فيه فترسو السفينة على شاطىء السلامة وقد سلم ربابنتها وركبها .

وشوقي لبق في امتداح النواب بهذه الصفات ، لأنه يدعوهم لها في معرض المدح بها ، وينبههم عليها في أسلوب من الاخبار ، ومن هنا زكيهم للشعب ، ويخصهم بوصاياه من وراء ستار .

الحق أباح والكنانة حرة ... والعز للدستور والاكبار
الأمر شورى لا يعيث مسلط ... فيه ولا يطغي به جبار
عهد من الشورى الظليلة نضرت ... آصاله واخضلت الأسحار
تجنى البلاد به ثمار جهودها ... ولكل جهد في الحياة ثمار
بنيان آباء مشوا بسلاحهم ... وبنين لم يجدوا السلاح فثاروا
فيه من التل المدرج حائط ... ومن المشانق والسجون جدار
أبت التقيد بالهوى وتقيدت ... بالحق أو بالواجب الأحرار
في مجلس لا مال مصر غنيمة ... فيه ولا سلطان مصر صغار
ما للرجال سوى المراشد منهج ... فيه ولا غير الصلاح شعار
يتعاونون كأهل دار زلزلت ... حتى تقر وتطمئن الدار
يجرون بالرفق الأمور وفلكها ... والريح دون الفلك والإعصار
ومع المجد بالأناة سلامة ... ومع المجد بالجماح عثار

— ٨ —

ولقد عرض للدستور المصري ما يعرض لكل وليد أو لكل جديد ، خوف وأوقف ، فإذا كان موقف شوقي نصير الدستور ؟ لما ائتلفت الأحزاب سنة ١٩٢٦ لانقاذه برياسة الزعيم الخالد سعد سجل شوقي هذا الاجتماع الخطير في قصيدته (المؤتمر) فامتدح الحرية ومدح الزعماء ثم خلص إلى أن الله أنعم على مصر باتئلاف أقطابها ، وفيهم الحوّل القلّب ، والصُّرَحة الْمُلْنة يكمل بعضهم بعضا ، وهم جميعاً أسنادها وأعلامها وأبطالها يشيدون سياج الملك بالدستور لا بالقنا والسيوف .

وبرع شوقي غاية البراعة فعبر في جلال وروعة أنه لا جلال ولا جمال لتاج لا تلتمع فيه جواهر الدستور وإن شرق بنوادر الماس وروائع الدر . ومن ذا الذي يقرأ له هذا البيت فلا يشعر بالجلال ؟ ومن ذا الذي يقرأ هذا البيت ثم يجحد أن الشاعر كاف بالدستور أيما كاف ؟ ؟ ثم يأسف أن عطل الدستور وأقفر ناديه وطيرت عنه بلابله ، ويصف في حسرة هذا التعطيل ، وبشاعة إغلاق البرلمان حصن الحق كما يسميه ، فشكناته في شوق إلى أبطالها وكماتها ، ومقاعد النواب مهجورة ومنبره معطل ، وإنه لوحش قد نسج العنكبوت به بيوته ، ويشبه حاله إذن بغار ثور حين اختبأ فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ومعه صديقه فنسج العنكبوت على بابه ، ولعله يريد أن الغار حمى الرسول والإسلام ، وأن البرلمان سيحمي الحق والعدل والشورى ، وإلا فلا وجه للمشابهة بين هذا وذياك .

الله ألف للبلاد صدورها ... من كل داهية وكل صُراح
وزراء مملكة دعائم دولة ... أعلام مؤتمر أسود صباح
يبنون بالدستور حائط ملكهم ... لا بالصفاح ولا على الأرماح
وجواهر التيجان ما لم تتخذ ... من معدن الدستور غير صحاح
احتل حصن الحق غير جنوده ... وتكالبت أيد على المفتاح
ضجت على أبطالها تكناته ... واستوحشت لكماتها النزّاح
هجرت أرائكه وعطل عوده ... وخلا من الغادين والرواح
وعلاه نسج العنكبوت فزاده ... كالغار من شرف وسمت صلاح

— ٩ —

وقبيل ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ يوم افتتاح البرلمان الأول أقام نادي المعلمين حفلا ألقيت فيه قصيدة لشوقي عرض فيها للدستور كعادته ، فيوم افتتاح البرلمان غرة في تاريخ مصر ، وهو في الأيام عيدها ، وسيحتفي المصريون بظلال الدستور ويسعدون ، وإذ كان في حفل تكريم المعلمين والعلم دعامة من دعائم الملك فقد رجا النواب ألا يضنوا على التعليم بالمال ، ويبارك للشبان أن جهادهم أثمر وأينع :

مصر إذا ما راجعت أيامها ... لم تلق للمثل العظيم مثيلا
البرلمان غدا يعد رواقه ... ظلا على الوادي السعيد ظليلا
ترجو إذا التعليم حرك شجوه ... ألا يكون على البلاد بخيلا
قل للشباب اليوم بورك غرسكم ... دنت القطوف وذللت تذليلا

— ١٠ —

وبعد فتختم دعواته إلى الدستور وضرورته وآثاره بأبيات من تحيته للنسر المصري المرحوم محمد صدقي حين قدم طائرا من برلين إلى القاهرة سنة ١٩٣٠ يدعوه فيها أن يحلق فوق قبة البرلمان السامقة المسموكة للفصل في مشكلات مصر ، يتنافس النواب والشيوخ هناك ذائدين عن الحق كالبنيان المرصوص

قف تأمل من علو قبة ... رفعت للفصل والرأي الصراح

نزل النواب فيها فتية في جناح وشيوخا في جناح
حملوا الحق وقاموا دونه كرعيل الخيل أو صف الرماح

ثم في رثاء المرحوم أبي هيف بك يشير إليه حديث الائتلاف، ويختم الحديث والقصيدة بقوله لسعد:

أخرج لأبناء الحضارة مجلساً يبقى على اسمك في العصور ثناء

ويقول في رثاء سعد:

أو لم يكتب لها دستورها بالدم الحر ويرفع منتداها؟؟

وفي رثاء إسماعيل باشا أباظة يقول:

إذا سلم الدستور هان الذي مضى وهان من الأحداث ما كان آتيا
ألا كل ذنب لليالي لأجله سد لنا عليه صفحنا والتناسيا

— ١١ —

ولقد كنا نحمد شوقي لو أنه استمسك بالدستور واستعصم ثم استكفى، ويحسبنا منه الاثارة والاثارة والتوجيه، ولكنه مع ذلك أرشد الشعب إلى واجبه في اختيار نوابه، السفراء برأيه، المعبرين عن رغباته، الناظرين بعينه، الناطقين بلسانه، الذائدين عن كرامته وحريته وسلطانه، فليحسن الشعب اصطفاءهم، وليحذر عوامل الخديعة ومضلة الاختيار.

فلا يؤثر الثراء أو الجاه، ولا يبيع النزكية بمال، ولا يتخدر بخلابة الخطابة، أو يتأثر بسحر الوعود الكذابة، وضمان ذلك أن ينشر الناخبون أمام عيونهم صفحات المرشحين للنيابة عنهم فيشرفو بالنيابة ذوي الجهاد والخلق والفضل والعلم ونزاهة النفس وعفة اليد والاعتزاز بكرامتهم وكرامة مصر سواء أكانوا أغنياء أم فقراء، وجهاء أم من صميم الشعب، ومن العار عليهم أن يبعثوا إلى دار النيابة تماثيل من حجر أو من خشب، لها حسبان في العدة، ولا أثر لها في رخاء أو شدة، وإذا كان الدستور قد استنقذ من بين أنياب الاحتلال فإن الانجليز يرصدون على الشعب هفواته، ويحصون على كل نائب زلاته، فليدقق الشعب في الاختيار، وليفقه النواب تبعة هذا الفخار:

أيها الشعب لقد صر ت من المجلس قابا
فكن الحر اختيارا وكن الحر انتخابا
إن للقوم لعينا ليس تألوك ارتقابا
فتوقع أن يقولوا من عن المال نابا

ليس بالأمر جديراً كل من ألقى خطابا
أو سخا بالمال أو قد م جاهاً وانتسابا
أو رأى أمية فاخ تلب الجهل اختلابا
فتحير كل من شب على الصدق وشابا

وفي قصيدة مشروع ٢٨ فبراير يكرر هذا النصح، ويبين وظيفة البرلمان وخطره:

قل للكنانة قول الصدق من مثل
مؤيد بالهدى لا ينطق الكذبا
دار النيابة قد صفت أرائكها
لا تجلسوا فوقها الأحجار والخشبا
اليوم يا قوم إذ تبنون مجلسكم تبنون للعقب الأيام والحقبا
فما هو الفرد إن شئتم سما صعدا إلى الثريا وإن شئتم هوى صببا
وإن رضيتم عمرتم ركنه ثقة وإن غضبتم تركتم ركنه خربا
وإنما هو سلطان يُدان له إذا تكفل بالأعباء وانتدبا
يقول عنكم ويقضي غير متهم العهد ما قال والميثاق ما كتبا

وفي قصيدته (المعلم) يقول:

ناشدتكم تلك الدماء زكية لا تبعثوا للبرلمان جهولا
فليسألن عن الأرائك سائل أحملن فضلا أم حملن فضولا
إن أنت أطلمت الممثل ناقصاً لم تلق عند كماله التمثيلا
فادعوا لها أهل الأمانة واجعلوا لأولى البصائر منهم التفضيلا
إن القصر قد يحول ولن ترى لجهالة الطبع الغبي محيلا

ويختم قصيدته (الأزهر) بهذه الصيحة:

دار النيابة هيئت درجاتها فليرق في الدرج الذوائب والذرا
الصارخون إذا أميء إلى الحمى والزائرون إذا أغير على الثرى
لا الجاهلون العاجزون ولا الألى يعشون في ذهب القيود تبخترا

نصر الله ذكراك يا شوقي، وكتب لك الخلود، فلقد كنت كما قلت:

وإني لغريد هذي البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكل معلقة قالها
أدار النسيب إلى حبها وولى المدائح إجلالها

أحمد محمد الحوفي
المدرس بالسعيدية الثانوية